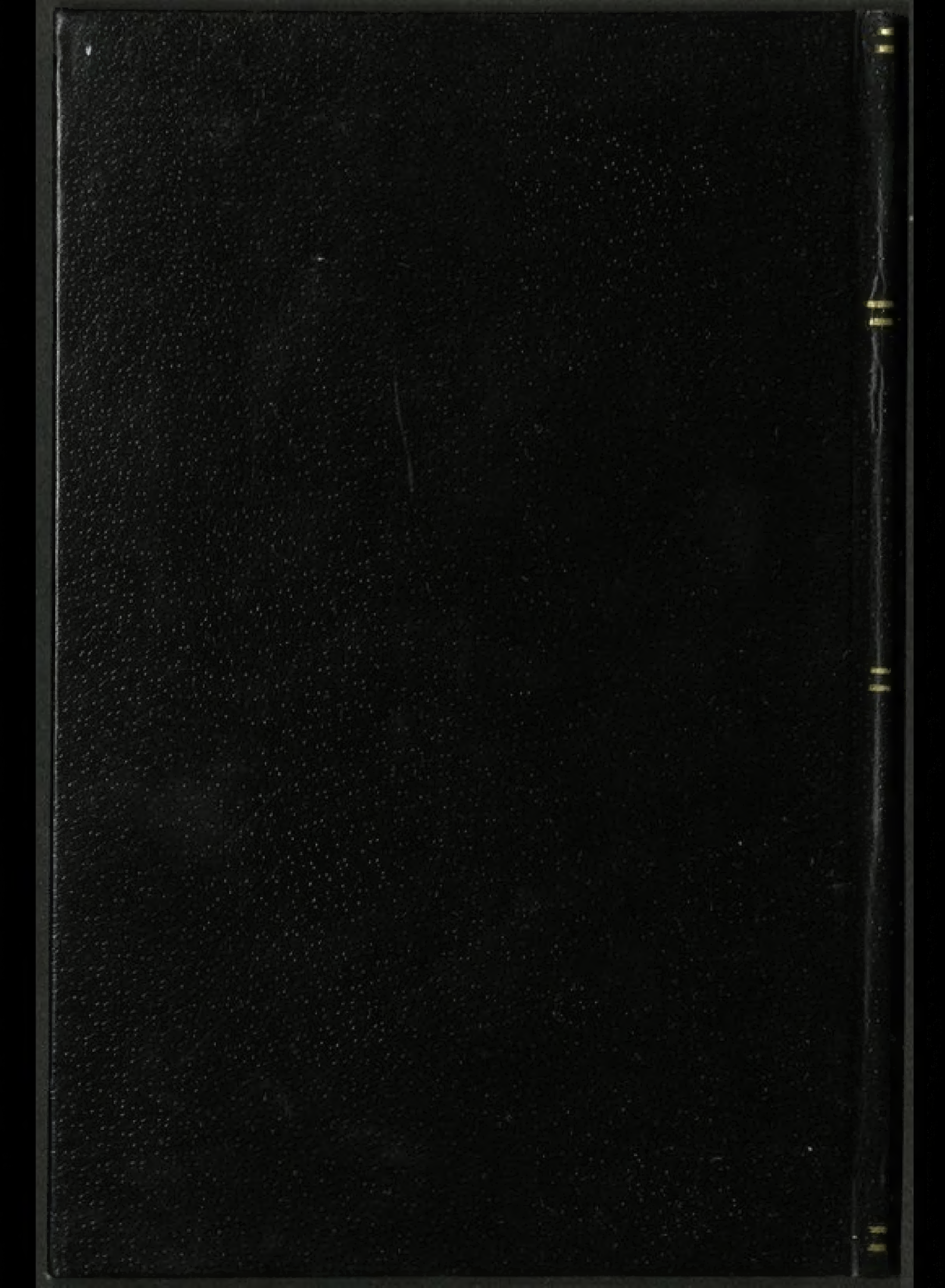
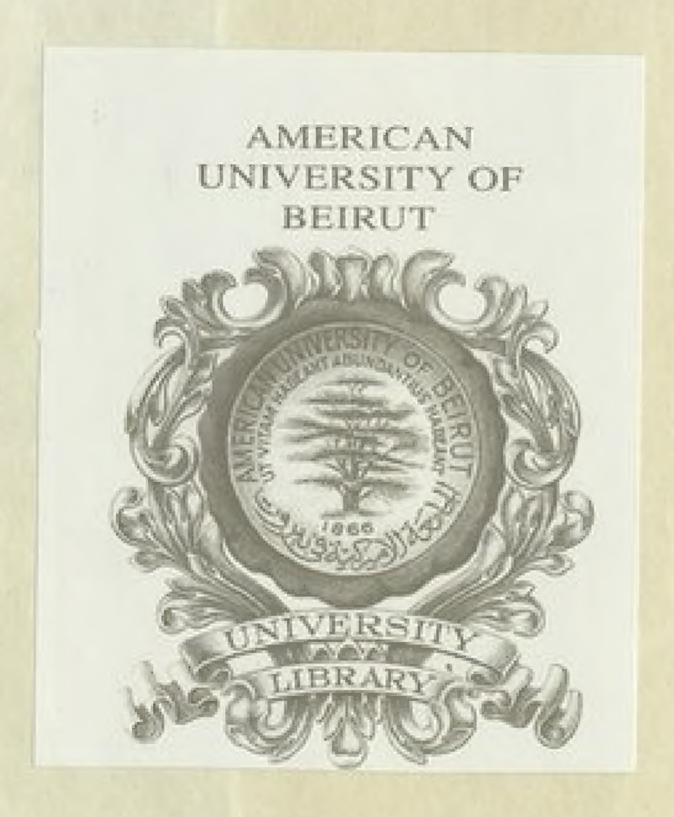
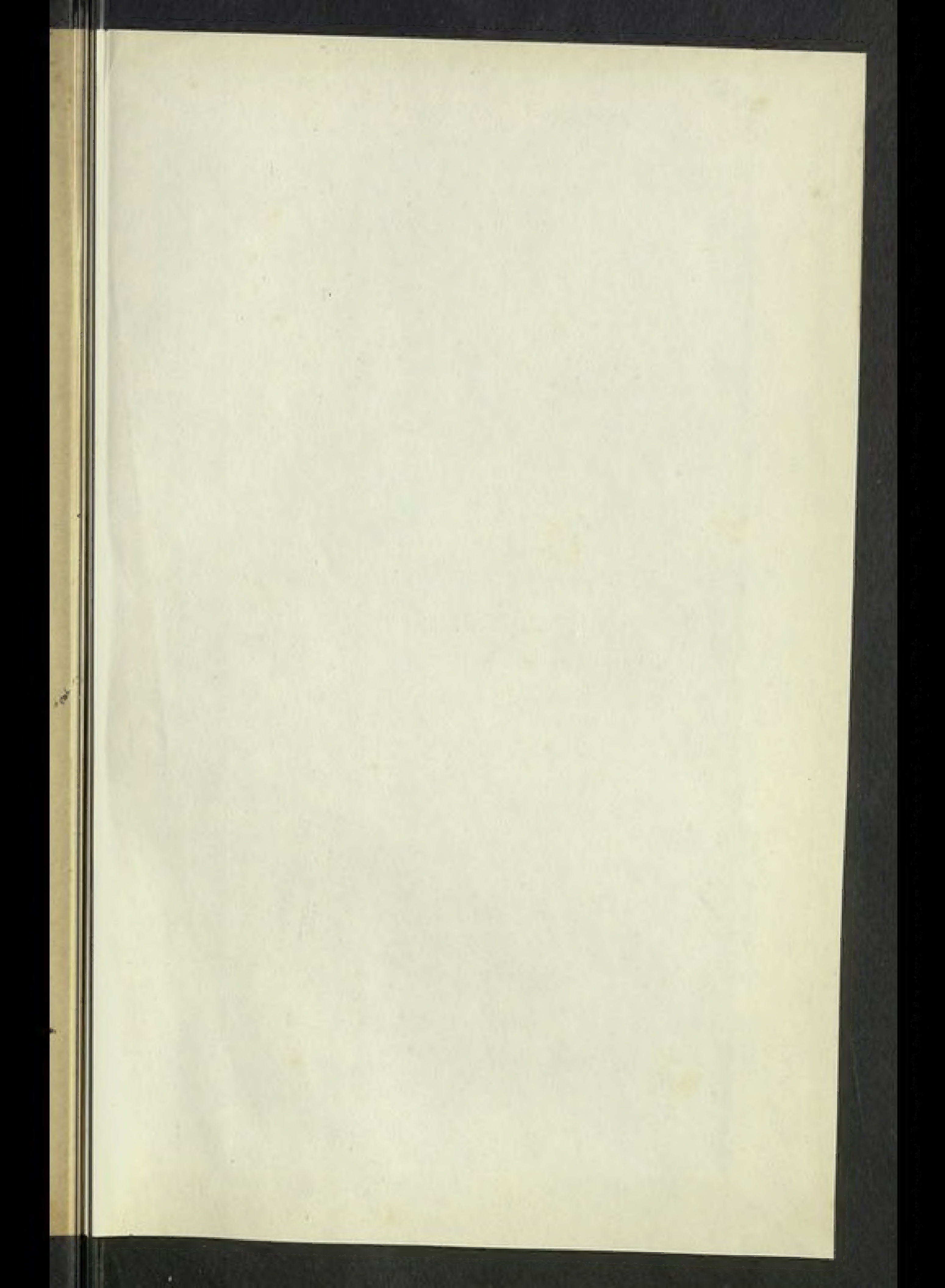



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
UNIVERSITY
LIBRARY



كتاب

السفينة النوحية

في

السكينة الروحية

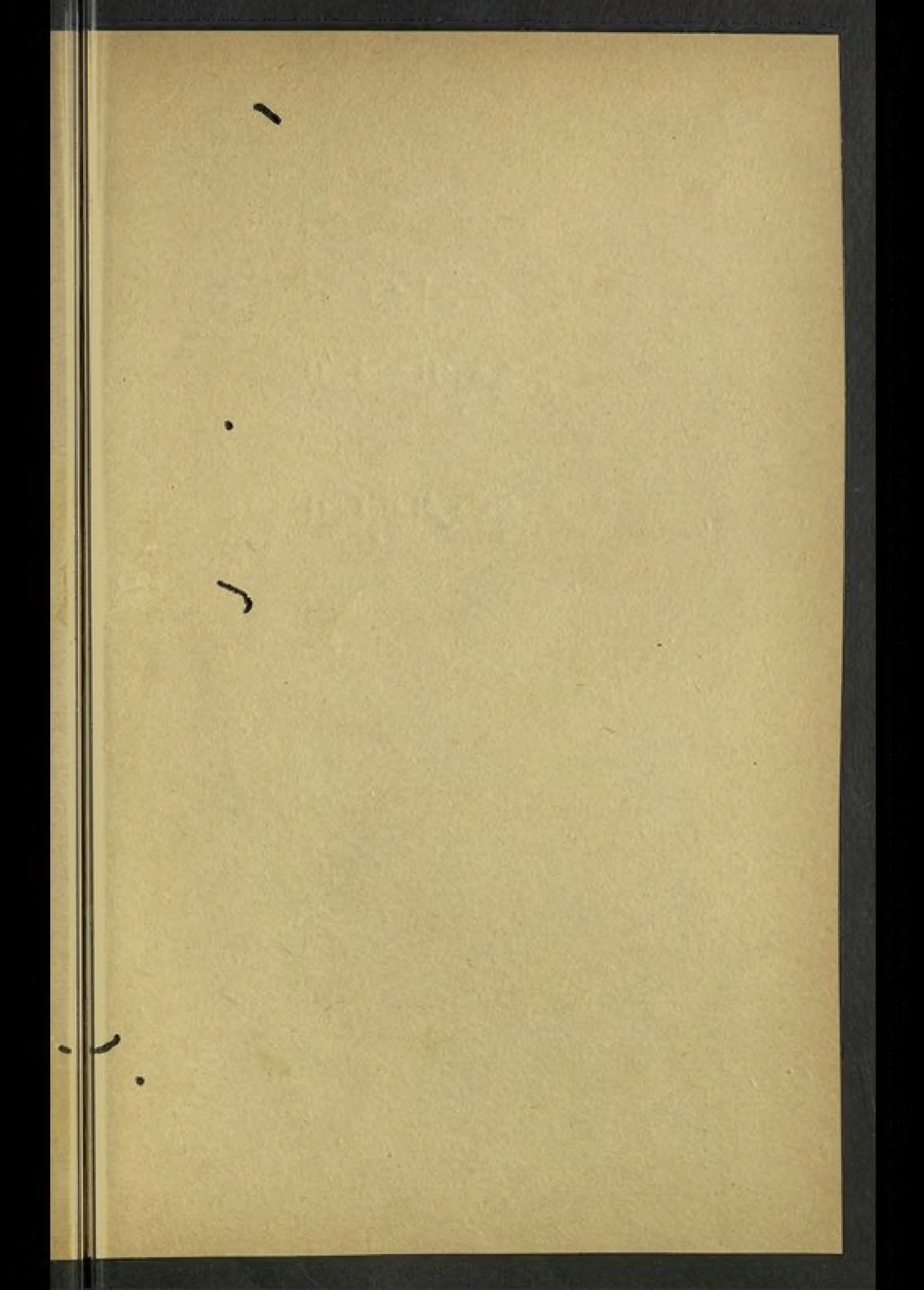
تأليف قاضي القضاة ابي العباس احمد بن الخليل ابن سعادة الخوبي الدمشقي المتوفى سنة ٦٨٧ رحمه الله

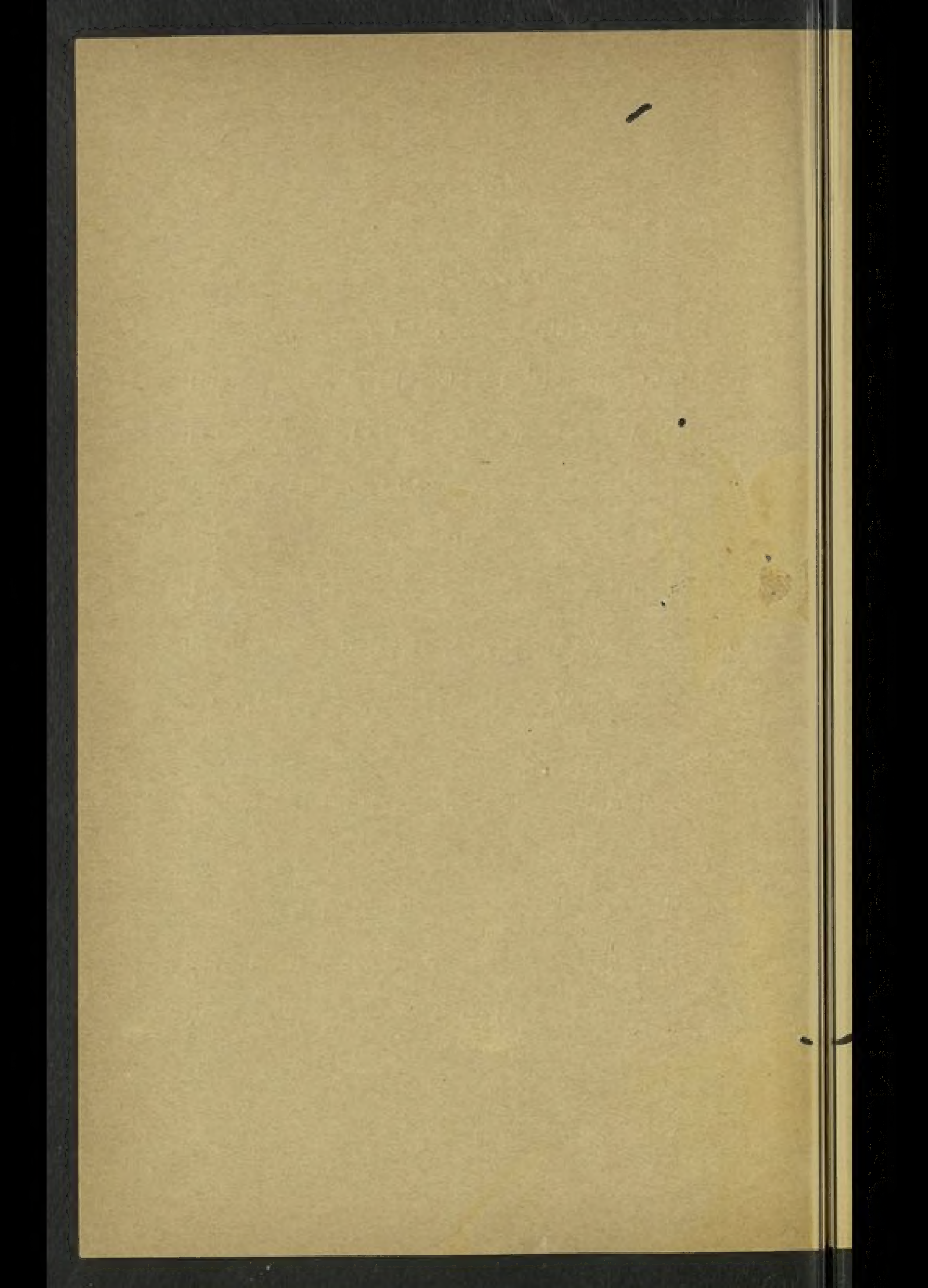
الطبعة الأولى

طبعه وصححه محمد راغب الطباخ

في مطبعته العلمية ☆ بحلب

سنة ١٣٤٧هـ — ١٩٢٩م





١

كلمة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

البحث عن الروح وما هي والنفس واحوالها من اهم مـا تتوجه اليه انظار محبي المدنية الفاضلة والراغبين فى تخلية النفس من الكدورات النفسانية وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الأنسانية لتلتحق بالملأ الاعلى و يشملها خطاب (يا ايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى) ولأسلافنا اساطين العلماء عدة مؤلفات فى هذا البحث خاضوا لجج بحوره واتوا فيه بالعجب العجاب ومن هذه المؤلفات (السفينـة النوحية والسكينة الروحية) تأليف قاضى القضاة شمس الدين ابى العباس احمد بن الخليل الخويي الدمشقي المتوفى سنة ٦٨٧

عثرت على هذا الكتاب فى مكتبة المدرسة الاحمدية في مدينة حلب ولما سرحت الطرف فيه الفيته من احسن ما الف فى هذا البحث واصغرها حجما واغزرها علماً واسهلها عبارة فبادرت في الحال الى استنساخه بيدى وعولت على طبعه اخراجاً له من زوايا الأهمال وتعميما للانتفاع من ابحاثه القيمة وفوائده الجليلة التي يحتاج اليها عشاق الكمال والمتصدون للأرشاد واخراج الناس من ظلمات الجهالة والغواية الى مناهج الرشد والهداية والسعادة الحقيقية ٠

رقم النسخة في المكتبة ٨٣٠ وهي جميلة الخط جداً وفي ٣١ ورقة ومضبوطة بالشكل ومع هذا الكتاب رسالتان أخريان والثلاثة خطها واحد كتب ناسخها في آخر الثالثة انه حررها سنة ٨٦٨ ولم يذكر اسمه .

والمؤلف ترجمة في طبقات الشافعية للأمام السبكي وهي كما في (ج ٥ ص ٨)

احمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى البرمكي قاضي القضاة شمس الدين ابو العباس الخويي ولد في شوال سنة ثلاث وثمانين وخمسماية دخل الى خراسان وقرأ بها الكلام والأصول على الامام فخر الدين الرازى فيما قاله بعضهم وقيل انما قرأ على القطب المصرى تلميذ الامام وقرأ الفقه على الرافعي وعلم الجدل على علاء الدين الطاوسي وسمع هناك من المؤيد الطوسي وسمع بدمشق من ابن الزبيدى وابن الصلاح وغيرهما .

سمع منه تاج الدين بن ابي جعفر وابو عمرو ابن الحاجب والجمال محمد ابن الصابونى وولده قاضى القضاة شهاب الدين محمد ابن قاضي القضاة شمس الدين وغيرهم . وكان فقيها اصوليا متكلما مناظراً دينا ورعاً ذاهمة عالية حفظ القرآن على كبر . وكان وهو قاضى القضاة يجيء الى الجامع بدمشق وربما كان بالطيلسان يتلقن على من يقرئه القرآن كما يتلقن الاطفال ولي قضاء القضاة بالشام فحدث بسيبويه وفيه يقول شهاب الدين ابوشامة وقد وقف على مصنف له في العروض

احمد بن الخليل ارشده الا ه لما ارشد الخليل بن احمد

ذاك مستخرج العروض وهذا مظهر السر منه والعود احمد

وللقاضي شمس الدين مصنفات كثيرة ونظم كثير توفي في سابع شعبان

سنة سبع وثمانين وستمائة بدمشق ودفن بسفح قاسيون اه

وذكر المترجم في الباب الثامن من كتابه هذا وهو خاتمة الأبواب نبذة صالحة من ترجمة نفسه وحالته في مبدأ نشأته وذكر رحلته الى الامام فخر الدين الرازي واخذه عنه وهذا يزيل التردد الذى ذكره السبكي فى ترجمته هنا

وفي المعجم لياقوت خوي بالتصغير بلد مشهور من اعمال آذربيجان حصن كثير الخير والفواكه ينسب اليها الثياب الخوية ثم ذكر من ينسب اليها

وفى القاموس خوي بلد بآذربيجان منه المحدثون محمد بن عبد الله واحمد ابن الخليل قاضي دمشق وابو قاضيها والطبيب معاذ بن عبدان الخوييون اه

ووقع فى الطبقات الخوني بالنون وهو غلط من الطبع .

ولم اجد ذكراً لهذا الكتاب فى كشف الظنون ولعل عذر مؤلفه انه لم يقف عليه ولم يُذكر شيء من مؤلفاته في ترجمته هنا او فى غيره من الكتب التى ترجمته ليكتفى بالاشارة اليه كما هو عادته

الناشر

محمد راغب

الطباخ

كتاب

السفينة النوحية

في

السكينة الروحية

تأليف قاضي القضاة ابي العباس احمد بن الخليل ابن
سعادة الخويي الدمشقي المتوفى سنة ٦٨٧
رحمه الله

الطبعة الأولى

طبعه وصححه محمد راغب الطباخ
في مطبعته العلمية ※ بحلب
سنة ١٣٤٧هـ — ١٩٢٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مصور الأشباح ومنور الأرواح فالق انفاس الصباح وخالق انفس الصباح . والصلاة على سيدنا محمد المبعوث في الكتب الصحاح المتكلم بالكلم الفصاح . الذي هو لأبواب الخير خير فتاح وفي ظلام ليل الكفر انور مصباح وعلى آله وصحبه هداة سبيل النجاة وطريق النجاح .

وبعد فأن العبد الضعيف يقول انى من مدة مديدة كنت ذا رغبة شديدة في ان اكتب كتاباً في النفس والروح واجمع فيه ما قاله الناس وماذا ظهر على سبيل الفتوح وصرفني عن هذا المرام ما كان نفعه اعم وصرفني ذلك الكلام ما كان جمعه اهم فأني كنت منصوباً لذكر دروس مختلفة الفنون ومندوباً الى شرح كتب مؤتلفة في العلوم والظنون . الى ان اتفق مثولي في بعض الأيام بين يدي سيد الأنام السلطان العالم العابد المولى الأجل المجاهد الذي جمع بين الملك والدين فقمع بقوة يمينه اساس المتمردين ولمع بنور يقينه الحق المبين اعلى الله شأنه واخلى عن المكاره جنانه . فسألني عن اقوال الناس في النفوس وكانت اجابته فرضاً على العيون والروس فأن فوايده في العلوم تتلى تلاوة الدروس ومواقفه في الجهاد لايخفيها طموس ولا دروس فذكرت بين يديه ما احتمله مجلسه الجليل ومجالس السلاطين لاتحتمل التطويل بل تميل للتخفيف الى التقليل ثم كتبت هذه الرسالة ناطقة باعايه التعويل . وهي دون ما كنت نويت

وما نشرت فيها معشار ما طويت . فاني كنت رأيت لفخر الدين الرازى رحمه الله كتاباً في النفس يزيد حجمه على عشرين كراساً وكان في عزمي ان اكتب له شرحاً وتقريراً فيكون ما اكتبه اكبر منه شيئاً يسيرا ولكن رأيت القليل المنتقى خيراً من الكثير الملقى . واوردت المطلوب فى ثمانية ابواب كأنها ابواب الجنان مفتحة على ارباب الألباب تدخل فيها الاذهان الأعيان وسميته [بالسفينة النوحية في السكينة الروحية]

الباب الاول في اقوال الاطباء فى الروح والنفس . الباب الثاني فى اقوال الفلاسفة فيها . الباب الثالث في اقوال علماء الحق وحكماء الصدق الباب الرابع في اشارات ارباب القلوب على ما لهم من الاسلوب . الباب الخامس فى دلايل كل قائل منهما . الباب السادس في مراتب النفوس والأرواح . الباب السابع فى تصفية النفس وتزكية الروح . الباب الثامن فى الخاتمة والنصيحة .

الباب الاول فى اقوال الاطباء فيهما

اتفق الأطباء على ان في بدن الأنسان ثلاثة ارواح الروح الطبيعي . والروح الحيواني . والروح النفساني . امـا الروح الطبيعي فهو جسم كالبخار لطيف القوام حار المزاج معدنه الكبد منها ينشأ ثم ينبث فى سائر البدن ويحمل القوى الطبيعية التي هى الماسكة . الجذب . والمسك . والهضم . والدفع . والتغذية والتنمية والتوليد فالجذب هو جذب النافع من الغذاء . والمسك هو مسك المجذوب زمانا ليهضمه الهاضمة . والهضم هو تغيير الممسوك

في اللون والقوام ليتغير مزاجه الى مشابهة المغتذي · والدفع هو دفع الفضل الى الخارج البراز والأصل الى الجاري الاحراز · والتغذية هي تشبيه الغذاء بالمغتذي في اللون والقوام والمزاج والالصاق بالأعضاء والأرواح بدل ما يتحلل · والتنمية هي الزيادة في اقطار البدن على تناسب طبيعي · والتوليد هو توليد المني ليوجد منه آخر من نوعه لئلا ينقطع النوع بموت الشخص ·

وهاتان القوتان تقفان قبل وقوف التغذية وتبقى الغاذية عمالة بعدهما زمانا · وقوة التنمية تقف قبل قوة التوليد وذلك لحكمة وهي ان القوة المنمية كانت تعمل في الصغر وقوة التوليد غير عمالة في ذلك الوقت فقدر الحكيم ان تعمل القوة المولدة زمانا · وقوة التنمية بطالة لأن الحاجة الى التوليد عند عجز الأب وقرب اجله ليكون ولده كبدله وعند الصغر لا حاجة الى الولد ولا قدرة على القيام به ·

وعندهم قوتان أخريان احدهما قبل الشبع وهي الحساسة المنذرة بالجوع وحاجة الأعضاء الى الغذاء وهي بالقوى النفسانية اشبه والأخرى بعد الشبع وهي المصورة التي بها التصوير في النطفة وهي الى الارادية اقرب · واما الروح الحيواني فهو ايضا جسم لطيف كالبخار في القوام وهو احر من الروح الطبيعي ومعدنه القلب ومنه ينشأ وينبث في سائر البدن ويحمل قوة الحياة ومجراه الشرايين ومجرى الروح الطبيعي الأوردة ·

واما الروح النفساني فهو ايضا جسم لطيف بخاري وهو دون الطبيعي في الحرارة مع انه الطف منه · وانما صار الطف مع انه ابرد لأن عمل

الحرارة في الروح الطبيعي لانه بعرضه معارض وهو حديث العهد فبسبب حدوث العهد لا يكون قد لطفته الحرارة الغريزية . والنفساني عارضه المسكن وهو الدماغ فانه بارد ولكن تقدم عهد الحرارة فيه فصار الطف لطول العهد وتحليل الغليظ وابرد لمجاورة المكان وهو الدماغ ومنه ينبث في سائر البدن وفعله الحس والحركة .

وهذه الأرواح تشترك فيها الحيوانات ولم يثبتوا للانسان روحاً آخر لأن غرضهم بيان ما يلحقه الصحة والمرض وان كان للانسان روح آخر فليس مداواته من جنس طب الأبدان .

واما النفس فلم يذكروها في الطب صريحاً لأنهم لم يذكروا في الطب الا الأركان والأمزجة والأعضاء والأرواح والقوى والأفعال فقال بعضهم ينبغي ان تكون النفس شيئاً من هذه الاشياء فقال بعضهم النفس هي الأعضاء مع الأرواح وهي هذا الهيكل الحي . ومال قوم الى انها المزاج المعتدل . وذهب بعضهم الى انها الدم وزعم غيرهم انها الأخلاط واعتقد قوم انها هي القوى . وقال قوم هي شيء غير هذه الأشياء تتبع المزاج المعتدل وتحدث عند استحكام المزاج وتستعمل القوى والآلات وتحصل المنى والكمالات وهو قول الفلاسفة .

الباب الثاني في اقاويل الأوائل

اما الروح فالمفهوم منه عندهم انه جوهر ليس بجسم ولا جسماني فيدخل فيه العقول والنفوس لكن تخصص الروح بما لا حاجة له الى الآلة الجسمانية

اولى فتكون الروح اعلى من النفس وهو الذى تقول له الفلاسفة العقل واما النفس فعندهم بأجمعهم سمائية وارضية وكل واحدة من القسمين جسمانية ومجردة والجسمانية هي كالصور القائمة بمواد الأجسام وهي النفس النباتية التي في النبات والحيوانية التي في الحيوانات ومثل هذه النفوس نفوس سمائية في الكواكب واجرام السموات تحركها . واما الذي ليس بجسماني فالسمائية منها نفوس بعدد الأفلاك لا بعدد النجوم ايضاً واما الأرضية منها فهي نفس الانسان وهي التي يسمونها النفس الناطقة ولم يثبتوا نفساً ارضية ليست بجسم ولا قائم بجسم الا هذه غير ان جمعاً من المتأخرين قالوا الشياطين نفوس ارضية مجردة . فان كان كذلك فيحتمل ان يقولوا الشياطين جماعة من الأنس بلغوا فى الشر الغاية وبالغوا فى الضر والنكاية ويحتمل ان يقولوا هم نوع آخر فيكونون قائلين بنفوس متنوعة ارضية مجردة .

والفرق بين النفس والروح ان الروح يفعل فعله من غير توقف على آلة جسمانية والنفس لا تعمل الا بالآلات . ولهذا قالوا النفوس لا تخلق الأجسام ولكنها تحركها لأن عملها بآلة جسمانية فكيف يكون لها عمل فيما لا عمل لها الا به .

فالموجودات على مذهبهم على خمس مراتب . [الأعراض] وهي اخسها وادناها ولها وجود وقيام بالنفس اي لا يفتقر فى وجودها الى محل بوجه فيه بخلاف البياض والسواد فأنهما لا يمكن وجودهما الا قائما بمحل هو الجسم او الجوهر ثم [النفس] ولها وجود وقيام بالنفس

واستغناء عن المكان والجسم لا يستغني عن المكان . فالنفس اشرف من الجسم لحاجة الجسم واستغناء النفس عن المكن والشرف بالاستغناء . فكلما كان الشيء غني عن الشيء كان اشرف ثم (الروح) وهو العقل عندهم له وجود وقيام بالنفس واستغناء عن المكان وهو يعمل عمله من غير حاجة الى آلة والنفس كل كمالاتها لا تحصل الا بآلاتها وهي اجسام . فالنفس في فعلها تحتاج الى جسم وان كان في وجودها لا تحتاج اليه . والروح استغنى في عمله ايضاً عن الاجسام فهو اذاً اشرف .

ثم الله موجود لا يفتقر الى محل ولا يحتاج الى مكان استغنى في فعله عن الآلات كلها واستغنى في وجوده عن الموجد والروح مفتقر الى موجد يوجده فالله هو الغني المطلق الملك الحق الذي استغنى عن كل شيء وافتقر اليه كل شيء . فسبحان من اعترف المحق والمبطل بكماله وعرف المسيء والمحسن وصف جلاله .

هذا مذهب القوم اوردته على سبيل الاقتصار وذكرته على طريقة الحكاية والاقتصاص ولا يوافق اعتقادي مذهبهم في شيء مما ذكرته عنهم الا في قولهم الله غني عن كل شيء وكل شيء اليه فقير وفي حاجة الاعراض الى المحل والاجسام الى المكان .

الباب الثالث في قول علماء الحق وحكماء الصدق

في الروح والنفس

العلماء المحققون والحكماء المحققون في الروح على مذهبين احدهما

وهو اسلمها ان لا يتكلموا في ماهيته ولا يتحدثوا عن حقيقته قالوا الله تعالى لم يبينه لرسوله ﷺ وقال (قل الروح من امر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلا) اي انتم خفي عليكم الأظهر من الروح وهو اعضاؤكم واجزاؤكم وجهلتم الأعم من هذه المسئلة وهو الرسالة فما بالكم تسئلون عن مسئلة لا يتوقف عليها صحة الأسلام . فالأشتغال بالتفتيش عما لم يبينه الله لرسوله غلو في الدين وعناد والتوغل فيما لم يرد به قرآن ولم يقم عليه برهان غلو في الأرض وفساد .

وثانيها ان الروح جسم نوراني لا يريد الا طاعة الله ولا يختار الا عبادة الله لا يمنعه من الدخول في المضايق فقد المسام ولا يدفعه عن الوصول الى الخلايق بعد المقام فهو في الممكنات اشرف الأقسام وبه يليق ان يقال هو جسم لا كهذه الأجسام فانه لطيف لا كالهواء الضعيف وقوي لا كالحجر الكثيف . والذي عندنا من الأجسام ان كان لطيفاً كان ضعيفاً . وان كان قوياً كان كثيفاً والروح في زمان واحد يوجد في اوله في المغرب وفي آخره في المشرق حتى يظن به انه في آن واحد كان في مكانين .

ثم قالوا هذا ايضاً طريق سالم لأنه مستنبط من كتاب الله مستخرج من كلام رسول الله فأنه تعالى قال في الروح (فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا) والجسم هو الذي يتلون بألوان ويتشكل بأشكال ويجوز في الجسم الواحد ان يرى على الوان مختلفة فان الزجاج يرى ابيض اذا كان ما فيه ابيض واحمر اذا كان ما فيه احمر وكذلك يجوز ان يتشكل

بأشكال مختلفة فأن البخار يمتد وينتشر حتى يملأ الجو الواسع ويجتمع
حتى يسعه مفحص قطاة ومالا يكون جسما لا يمكن ان يرى في لون ولا
شكل وقال تعالى [نزل به الروح الأمين] والنزول من اوصاف الأجسام ٠

فأن قيل ورد ان الله ينزل الى سماء الدنيا وتعالى عن الأحتياج الى
مكان نقول التأويل لا يجوز الا عند تعذر الحمل على الحقيقة والا لا يبقى
وثوق بأخبار المخبرين لكن النزول حيث يبقى على حقيقته يكون النازل
جسماً وكل ما كان جسماً كان حادثاً والله قديم فلا يكون جسماً فلا يكون
النزول حقيقة له فيحمل على آثار رحمته وخزائن نعمته ٠

واما الروح ان كان جسماً كان حادثاً وهو كذلك فلا بعد فيه ولا
محال وقال تعالى [يوم يقوم الروح والملائكة صفا] وهو من صفة الأجسام
وورد في الأخبار الصحيحة ان النبي ﷺ جاءه جبريل عليه السلام
وهو في بيوت مغلقة الأبواب وانه رآه في صورة فهذه الآيات والأخبار
دلت على ما ذكرنا من الأوصاف واذا كان الأستنباط من كلام الله
تعالى وخبر رسول الله فالطريق سالم ٠

ثم ان الله تعالى مدح الذين يستنبطون الأمور من كلام الله وجعلهم
تلو رسوله حيث قال فيهم [لعلمه الذين يستنبطونه منهم] واما ان الله
لم يبينه لنبيه ﷺ فنقول لم يبينه حين سأله اليهود عن الروح ليجادلوه
فيه فأنهم كانوا يعلمون ان المسألة معركة النظار وفيها اقاويل مختلفة
فسألوه عنها حتى اذا اجاب بجواب يقولون ليس الجواب كذلك ويأتون
بأقوال من تقدم ولا يتم الجدال الا في محل الخلاف الذي لا يقوم عليه

برهان قاطع ولا يطلع عليه نور ساطع فيتجاذب المتنازعون اطراف الكلام فقال تعالى لا تجبهم عما يسألونك فانه ليس بواجب عليك بيانه ولا عليهم معرفته وما سألوك الا ليجادلوك وكذلك في عدد اصحاب الكهف لم يبين فان عددهم كان مختلفاً فيه فلو بين لهم عدداً لقالوا ليس كذلك بدليل قول فلان وفلان فبين ما قيل فيهم ولم يبين الحق من ذلك مع انه لا خطر في ذكر عدد قوم وفي الروح ربما يورث فساداً في الاعتقاد فان ما ذهب اليه الفلاسفة فيه خطر عظيم وفساد كبير ·

فان قيل لو كان كما زعمت لبين اقوال الناس في الروح كما ذكرها في عدد اصحاب الكهف تقول الاقوال في عددهم كان منحصراً في ثلاثة ·

والاقوال في الارواح وانواعها كان منتشراً وايضاً في ذكر اقاويل الناس في ذكر اصحاب الكهف لا خطر وفي ذكر اقاويل الناس في الروح خطر ·

فان قيل فلم شرعت انت في ذكر اقاويل الاوائل مع ما فيه من الخطر نقول النبي ﷺ ليس احدنا كهيئته فانه كان يختار في كل حين ما هو الافضل فما يقول من الكلام الا افضله ولا كان يفعل من الافعال الا اكملها حتى انه لما نسي من صلاته ما نسي كان سهوه اكثر مصلحة من عدمه لانه بسببه تبين لامته ما يفعلونه ·

ويمكن ان يقال ان نومه في فراشه مع اهله في وقت نومه كان اصلح من تركه النوم والاصل فيه انه عليه السلام لو كان يجتنب النساء ويترك الاكل والشرب ويخلو بنفسه ولا يخالط الناس ثم يخبر عن الغيوب ويأتي بالغرائب ويذكر الحكم كان للمبطل ان يقول انه مكتسب فلما كان

يقول الحكم ولم يتعلم من كتاب ويأتي بالعجايب وهو على عادة غيره من الناس علم انه لم يكن مكتسبا لما كان عليه بل كان ذلك من عطاء الله وانظر الى عدم تعلمه فأن التعلم لكل احد فضيلة ولم يكن للنبي ﷺ فضيلة . ويظهر هذا بأن احدنا ان اشتغل بالقرآءة والتكرار او بقي في التفكر والاذكار ثم تكلم بكلام حسن او صنع صنعا عجيبا قيل انه اثر التعلم او نتيجة التفكر واما ان كان طول نهاره في اللهو واللعب وجميع ليله في النوم والغفلة ثم اذا جري كلام تكلم في غاية الدقة واذا اتى بعمل اتي به على اتقن ما يكون علم كل احد انه من قوة الذكاء او زكاء القوة .

ولا خلاف بين العقلاء ان الذكاء ليس بمكتسب وانما هو من عطاء الله تعالى . وهذا ضرب مثل ولرسول الله المثل الأعلى من هذا ولله المثل الأعلى

اذا علمت هذا نقول ان زماننا كثيراً ما ينصرف الى لعب او كذب ويسمى بالمداراة فانا كثيرا نقول للمسيء محسن وللجاهل انه عالم ونقول للعدو انى محب ثم ان الدين أمن من الخلل وقدم اهل الشرع سلمت عن الزلل برسوخ الأيمان وحصول الأيقان فذكر مذهبهم مما يوجب للعلماء شكر نعمة الله عليهم حيث يعلمون ان الشرع احسن من غيره ولو لم يذكر كان يظن ان في مذهبهم حقايق اكمل مما في الشرع ولا كذلك في اول زمان الأسلام فأن الشرع بعد لم يكن قد ظهر في الجامع وبلغ الى المسامع فذكر كلام الفلاسفة في اول زمان النبوة كان يورث وهماً في الأذهان ووهناً في الأيمان فلم يذكره النبي ﷺ ولا اصحابه

واذا علمت الروح نقول زين الله ظاهر الروح وباطنه وشرف مستقره

ومواطنه فظاهره له من الصور اجملها ومن الاشكال اكملها ومن الالوان احسنها ومن الروايح اطيبها كأن كل اعضائه من الحسن وجه وكأن جميع اجزائه في العلم قلب ليس له سوأة ولا فيه عورة ٠

والارواح المنزلة من عند الله وجبريل عليه السلام على هذه الصفة ٠

واما الروح الانساني فهو ايضاً على هذه الصفة خلقه الله تعالى قبل الاجساد ثم نفخه في الجسد ٠ والارواح كانت كالاجناد المجندة ولما نفخت في الاجساد المجسدة ائتلف منها ما تعارف واختلف ما تناكر والروح لما نفخ في الجسد صار فيه سارياً وفي عروقه واعضائه جارياً سريان النار في الفحم وجريان الماء في الورد وهذا هو الأصح ٠

وقال بعض العلماء الروح في الآدمي جزء صغير لما نفخ فيه سكن قلبه والاول احسن فما من جزء من البدن الا وفيه شيء من ذلك النور كالجمر ما من جزء منه الا وفيه شيء من النار وكذلك للحيوانات ارواح سارية فيها غير ان نسبة الارواح الانسانية الى الارواح البهيمية كنسبة الافعال الانسانية الى الافعال البهيمية وسنذكرها

والروح الانساني كان موجوداً قبل جسده ولا ارى ان الروح البهيمي كان موجوداً قبل جسد البهايم ٠ وفيه لطيفة وهي ان جسد الانسان خلق لروحه وروح البهايم خلق لجسدها ٠ ثم ان الروح الانساني كما كان موجوداً قبل التئام اجزائه كذلك يبقى موجوداً بعد انفصام اعضائه قال ﷺ اذا مات احدكم رفرف روحه فوق نعشه يقول يا اهلي ويا ولدي لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي ٠ وايضاً ورد في الاخبار ان روح المؤمن في قنديل

تحت العرش · وورد ان الارواح في روضة من رياض الجنان او في حفرة من حفر النيران · فالأرواح تبقى بعد موت البدن كثيرا · فان مات عاش مع اعادة البدن وان لم يمت اعيد البدن واثبتت به الروح كما كان وفي موت الروح خلاف ·

واما النفس فهي ايضاً جسم لطيف به يتحقق العقل الذي عليه مدار التكاليف فالنفس اذاً كأنه الروح الانساني

والنفس لها ثلاث حالات في الأول هي امارة بالسوء · وفي الثانية هي لوامة · وفي الثالثة هي مطمئنة ·

بيان هذا ان الله تعالى جمع بين البدن الكثيف والنفس اللطيف ليكمل البدن بالنفس والنفس بالبدن وجعل التكميل اولاً من جانب النفس فهي تكمل اولاً البدن حتى يقوى على الاعمال ثم تكمل هي بالبدن فيقوى على الخيرات فالأنسان في اول امره وابتداء عمره همه تنمية جثته وتقوية متنه وشغله الأكل والشرب ليمتد اجزاؤه طولاً وعرضاً ودأبه اللهو واللعب ليشتد اعضاؤه بسطاً وقبضاً فاذا كبر امر بتزكية النفس بترك العادة وفعل العبادة وهو يستمر على عادة صباه ويكون قد ازداد شهوة الفرح في هواه فتدعوه الحاجة وتحمله العادة الى التهاون في الطاعة والتقصير في العبادة كيف وهو في صغره كان في كفالة الأب فارغاً من امر غده وعند البلوغ لزمه تحصيل قوته لما جعل امره بيده فيحتاج الى مأكول شهي ومشروب هني ومنكوح بهي ومفكه جني فيحصله من حيث كان ويتغذى ولا يبالي رضى غيره او تأذى فيستمر على غيه ويستمرى مرعى

بغيه فيكمل بدنه بنفسه ويبلغ حد اوجه . ولكن نفسه تبقى ناقصة في خدمة بطنه وفرجه فما دام النفس على هذا فهي امارة بالسوء فاذا تفكر في امره وتفكر ما مضي من عمره علم ان الأمر الى الزوال وآخر العمر الانتقال ولابد من الارتحال وحوول الحال فيقول هب اني عشت الف عصر وحصلت ما لا يدخل تحت حصر فماذا بعد ذلك فيقول كل شيء هالك ثم لابد من اعادة وبقاء في سعادة او شقاء فيقول يا مسكين تحصل قوت الغد بقوة الجد وشدة الكد مع انك لاتدري كيف تجري وقبل نفاذ القوت فاشتغالك بأمر مآلك من اهم اشغالك . واقبالك على الصلاح لاستقبالك خير من احتفالك بشغل حالك فتصير النفس عند هذا لوامة . ثم اذا اشتغلت بعبادة الله لمعاده ينازعه البدن بطلب معتاده فيكون في اول الأمر يعارضه الأعمال البدنية وتزاحمه الاشغال الدنية فيكون في صلاة الليل وبقلبه يسامر الظرفا . وفي ورد النهار وبخاطره يقامر الحرفا فتراه بجسده في المسجد عاكفا ويكون بقلبه في السوق واقفا فاذا امعن في العبادة صارت الطاعة له كالأمور المعتادة ثم يرتفع امره حتى يتغذى بالعبادة احيانا ويتأذى بالامور المعتادة عيانا ان افطر يوما سقم . وان صام دهرا سلم وحينئذ تصير مطمئنة ولها في كل حالة درجات فهي عند كونها امارة قد تأمر بالسرف في المباح والظرف والمزاح ولكن لاتأمر بالجنف والسفاح وقد تأمر بأكل الحرام وتحمل على قتل الكرام وتدعو الى ترك الاسلام وعبادة الاصنام . وهذان طرفان وبينهما درجة من تدعوه نفسه الى كبيرة او اصرار على صغيرة وتندم عليها بعد مدة يسيرة فتأتي بالتوبة عقيب الحوبة .

وهذا الشخص تكون نفسه تارة امارة واخري لوامة . وكذلك النفس المطمئنة لها درجات فوق درجات كما للأمارة دركات تحت دركات .

الباب الرابع في اشارات ارباب القلوب

على مالهم من الاسلوب

اثبتوا للانسان اربع درجات . النفس . والروح . والقلب . والسر فالنفس هي الأمارة بالسوء . والروح هو الحامل على الاحسان . والقلب هو المتقلب الى الله المقبل عليه . والسر هو الواصل اليه الذاهل عما سواه وان كان بين يديه . والنفس جاهل بآيات الله والروح عالم ببينات الله . والقلب خبير بالدقايق والسر بصير بالحقايق .

النفس مشكاة مظلمة . والروح زجاج صاف . والقلب مصباح منير والسر نور كله . النفس خائن في امانة الله . والروح امين على خزانة الله . والقلب ناقد والسر متصرف . علامة النفس اكثار الاكل والشرب وايثار اللهو واللعب . وعلامة الروح الصبر والصلاة وجبر النفس على العبادات وآية القلب الالتذاذ بالارتحال . وآية السر السرور في كل حال . ومن المتأنقين من يريد يزيد في المراتب فيقول نفس النفس دون النفس وسر السر فوق السر . وكذلك تقول روح الروح وقلب القلب وكأنه اشارة الي ما ذكرنا ان للنفس الأمارة دركات وللنفس المطمئنة درجات وهذه الاشارات تحقيقها ما ذكرنا .

فالنفس هي الأمارة والروح كأنه هو النفس اللوامة والقلب هو المطمئنة

واما السر فهو درجة من قال فيهم عبادي حيث قال ادخلي فى عبادي فان النفس لما اطمأنت قال لها ادخلي فى عبادي والدخول دل على انها لم تكن داخلة فيهم وانما دخلت فيهم حيث اطمأنت ·

ثم ان النفس في الجحيم · والروح في النعيم والقلب فى عليين والسر عند مليك مقتدر اي صاحب القلب وصاحب السر ·

الباب الخامس فى دلائل كل قائل

اما الاطباء فقالوا انا وجدنا ان الاخلاط والاعضاء والارواح اذا كانت سليمة كانت القوى والافعال مستقيمة ولابد ان يكون الاركان والمزاج كما ينبغي · فصلاح الاخلاط والاعضاء والارواح يتبعه صلاح القوى والافعال وهو يتبع صلاح الاركان والمزاج · فهذه هي جميع ما نرى في البدن فليس ها هنا روح آخر ولا نفس خارجة عما ذكرنا ·

وهذا فاسد لأن غاية ما في الباب انهم لم يجدوا شيئاً وليس كل مالم يجدوه لم يوجد ·

واما الفلاسفة فلهم امور ثلاثة الأول استدلوا بالنظر فى ابتداء الأيجاد وقالوا الله واحد من جميع الوجوه والواحد لا يصدر منه الا واحد فلا يجوز ان يكون المبدع الأول عرضاً لأن العرض بعد الجوهر فلا يكون هو اول الموجودات الممكنة ولا يجوز ان يكون جسماً لأن كل جسم فيه اجزاء وكثرة والموجود الأول من الله واحد ولا يجوز ان يكون نفساً لأن النفس لا تعمل الا بآلة جسمانية فلا بد لها من آلة تعمل ·

فلو كانت النفس اول الممكنات لكان الثاني منه فيكون قد عملت في الثاني من غير وجود آلة وهو غير جائز فبقي ان يكون الموجود الاول الممكن روحاً مجرداً لا يفتقر الا الى موجده في وجوده وبقائه وعمله ·
والوجه الآخر اخذوه من الانتهاء · وقالوا لا شك في ان فينا ما يعرف ما لا ينقسم والعارف بما لا ينقسم لا يجوز ان ينقسم لأنه لو انقسم فكل جزء منه اما ان يكون عارفاً بذلك المعروف واما ان يكون العارف بعض اجزائه دون البعض · واما ان لا يكون شيء من اجزائه عارفاً · فان كان كل جزء عارفاً فهناك نفوس عارفة كنفس زيد وعمرو وخالد وكلامنا في عارف واحد ومعرفة واحدة بالمعروف · وان كان البعض عارفاً دون البعض بكمال النفس فهو ذلك العارف والجزء الاخير غير محتاج اليه وان لم يكن شيء منه عارفاً عند الافتراق فعند الاجتماع اما ان يكون شيء قد حدث لم يكن واما ان لا يكون فان كان لم يحدث شيء لم يكن فهو عند الاجتماع كما هو عند الافتراق فوجب ان يكون العرفان عند الاجتماع محالاً كما هو عند الافتراق او يكون عند الافتراق واجباً كما صار عند الاجتماع والا لزم رجحان الممكن من غير مرجح ·

وان حدث شيء فالحادث اما ان يقوم بكل جزء وهو محال لان قيام الواحد بمحال كثيرة فيه محال كبير · واما ان قام البعض دون البعض فهو رجحان من غير مرجح ·

ونقول وحينئذ النفس هو ما قام به هيئة الاجتماع الحادث واما ان لا يقوم بشيء منها وهو محال لأن الحادث فيه لا يقوم بنفسه ولا بغيره

ولا يمكن ان يقال كل جزء من العارف جزء من المعروف لأن المعروف مما لا ينقسم .

واما الوجه الثالث فأخذوه من الوسط وقالوا اشرف الاشياء ما لا حاجة له بوجه من الوجوه واخسها ماله حاجات كثيرة . ثم ان اكثر الأشياء عاجز . اما العرض فانه يفتقر الى موجد ويفتقر الى محل ومحله يفتقر الى موجد ومكان ويفتقر في فعله الى محله فان الحرارة مثلا لا تعمل الا وهي في محل . فهذه اربع حاجات الحاجة الى الموجد والى المحل والى المكان والى آلة جسمانية في الفعل . ثم ان الجسم يحتاج الى موجد والى مكان ويفتقر في فعله الى آلة فان الجسم لا يعمل عمله الا بقوة جسمانية او آلة وهو اشرف من العرض لأنه لا يفتقر الى محل يقوم به والعرض يفتقر الى ذلك . ثم النفس لها حاجتان فانها تفتقر الى موجد وتفتقر الى آلة بها تعمل وهي اشرف من الجسم لأنها لا تفتقر الى مكان والجسم لا بد له من مكان . ثم الروح وهو العقل له حاجة واحدة وهي الحاجة الموجبة وهي اشرف من النفس فانه لا يحتاج في فعله الى شيء والنفس تحتاج ثم ان الله تعالى هو الغني المطلق وهو الملك الحق الذي لا يحتاج الى شيء في شيء ولا يستغني عنه شيء في شيء .

واما دلالتنا فهو ما ذكرنا من الاستنباط من كتاب الله والاستخراج من كلام رسول الله والعقل يوافقه لأنا لا نشك في جواز وجود جسم موصوف بما ذكرنا من الأوصاف والصادق اذا خبر عن ممكن وجب قبوله من غير تأويل .

ثم ان دلايل الفلاسفة غير تامة فأما الأول قولهم الواحد لا يصدر

منه الا واحد فباطل لأن الجسم كثير كما قدمه فهو لا يصدر على مذهبهم الا من كثير وذلك الكثير هو الله لأن الله لا كثرة فيه بالاتفاق فذلك الكثير صادر من شيء فأن صدر من واحد لزم خلاف قولهم وان صدر من كثير فينقل الكلام الى ذلك الكثير ونقول لا بد من ان يكون ممكناً صادراً من موجد كثير . لا يقال كما قالوا ان الصادر الاول كثير ولكنه لم يصدر كله من الله فأن الاول له وجود من الله وامكان من نفسه فهو يدرك وجوده من موجده وامكانه من نفسه فحصل امور كثيرة وجود وامكان وادراك وجود وادراك موجد وادراك امكان وادراك نفسه فلكونه مدركاً لموجده اوجد عقلاً كما اوجده الله تخلقا بخلق مبدعه ولكونه مدركاً لنفسه اوجد نفساً ولكونه مدركاً لامكانه من نفسه اوجد مادة جسم ولكونه مدركاً لوجوده من موجد اوجد صورة . فنقول هذا التعسف لا حاجة اليه ويمكنكم ان تقولوا الله تعالى ادرك نفسه الواجب وعلم الأشياء وعلم وجوبه وعلم امكان غيره فلكونه مدركاً لنفسه اوجد شيئاً مجرداً ولكونه مدركاً لأشياء غيره اوجد شيئاً وهذا القول بهم اليق فأنهم قالوا علم الله تعالى لا انفعالي فاذا ادرك شيئاً على النظام الحسن وجد كما ادركه من غير قصد منه اليه

ثم انك لو سمعت دليلهم على ان الواحد لا يصدر عنه الا واحد لقضيت العجب من عقولهم فأن احد دلائلهم انهم قالوا لو وجد شيء من واحد ثم وجد منه شيء آخر غيره فمن حيث انه وجد هذا لم يوجد ذلك ومن حيث انه وجد منه ذلك لم يوجد هذا هذا احد دلائلهم وقس عليه الباقي

ومن هينا نعلم ان ذكر مقالاتهم وحكاية استدلالاتهم مما يوجب قوة الايمان وكمال الاتقان حيث يعلم ان لا برهان بسوى القرآن ولا يقين لمن خالف الدين ·

واما قولهم فينا من يعرف ما لا ينقسم فنقول نعم ولكن لم لا يجوز ان يكون العرفان بجميع الاجزاء عند الاجتماع كما ان الجسم عندهم له جزآن مادة وصورة والاجتماع بينهما لا يوجد في احدهما وكذلك صورة البيت لا تقوم بالسقف وحده ولا بالحائط وكذلك المدينة بيوت متفرقة وكونها مدينة لا تقوم بكل بيت بل بالمجموع ·

واما ما ذكر من المراتب فنقول ما ذكرت يفيد امكان موجود ممكن لا في مكان وليس كل ممكن واقعاً فان في الامكان بيتاً من زخرف ينزل من السماء ولم يقع ذلك ·

اذا عرفت هذا نقول اولاً لم قلتم ان ما ذكرتم ممكن ان بعض الحاجات يلزم البعض فان الحاجة الى المكان يلزمها الحاجة الى الموجد فان كل محتاج الى مكان فهو محتاج الى موجد محتاج الى مكان ولهذا قال اكثر المتكلمين الاستغناء عن المكان من خواص صفات الله تعالى ·

وان اردنا الزامهم نقول لو جاز وجود موجود ممكن لا يفتقر الا الى موجده فذلك الموجود اما ان يكون حادثاً زمانياً وانتم لا تقولون به · واما ان يكون قديماً فهو غير جائز لان كل ممكن حادث بدليل الحدوث وهو مشهور ثم نقول سلمنا جواز وجوده ولكن ما الدليل على وقوعه وما ذكرتم بان بطلانه فلا يثبت ما ذكرتم ما لم يبين برهانه ·

الباب السادس فى مراتب النفوس والأرواح

اما على رأي الفلاسفة فالأولى هي النفس النباتية وهي التي فى الاشجار والزروع · وهى جسمانية اي قوة قائمة بجسم وعملها تنمية النبات الى ان يبلغ حد كماله النافع · ثم الحيوانية البهيمية وهى ايضاً جسمانية وعملها التنمية المذكورة مع الحركة الأختيارية في تحصيل المقاصد العاجلة وكذلك بقضاء الشهوة ودفع الألم لا لكمال اجل او نفع امل فالحمار يأكل لايقوى على حمل الثقيل · ويمشي في الطريق لا لنفع الصاحب ولكن هرباً من الضرب وطلباً لوضع الحمل الثقيل من الظهر · والأنسان يأكل ليقوى على حمل اعباء التكاليف ويقدر على عبادة الله ويمشي لنفع الرفيق ·

ثم بعد هذه النفس الناطقة التي ذكرناها وهي ليست بجسم ولا جسمانية وعملها التنمية المذكورة والحركة الأختيارية الموصوفة مع زيادة امر وهو نيل الكمال والقصد الى الخير ولم يثبتوا في السماء نفساً نامية نباتية واثبتوا نفساً حيوانية عملها تحصيل المقاصد العاجلة ولكن للتشبه لا بالتشهي واثبتوا نفساً مجردة عملها نيل الكمال ·

واما الأرواح التي فى العقول فالمشهور عندهم انها عشرة بعد كل ملك عقل وزيادة واحد لا ملك معه ·

واما مذهب العلماء في ترتيب النفوس والأرواح فنقول هذا الترتيب على وجهين ترتيب في النوع وترتيب فى احوال الشخص الواحد ·

اما ترتيب النوع فنقول نفس كالنباتية ولكن في النطفة الى ان يصير

عظما ويكسي لحما فانا نقول بأن للجنين نفسا منفوسة اذا انشأ الله خلقا آخر تعلقت به نفس بهيمية وهذان نوعان مختلفان ثم يتعلق به النفس الانسانية التي قلنا انها جسم لطيف نوراني والظاهر انها تخالف الاوليين في الحقيقة ثم ان نفوس الناس لاتختلف بالنوع وانما تختلف بالوصف فنفوس الأتقياء في الحقيقة كنفوس الاشقياء غير ان التقي نفسه انارت واضاءت ونفس الشقي ظلمت واساءت . وقال بعض المتأخرين يحتمل ان تكون مختلفة الحقائق فتكون نفس النبي ﷺ مخالفة لنفس ابي جهل في الحقيقة .

ثم نفوس الملائكة ولا ادري انها مختلفة الحقايق او نوع واحد فيه افراد كنفس الانسان ونفس اخرى هي مقابلة نفوس الملائكة على التضاد وهي نفوس الشياطين وكذلك لا ادري انها مختلفة الأنواع ام متحدة النوع مختلفة الأفراد .

فصارت انواع النفوس خمسة النفس النباتية . والنفس البهيمية . والنفس الأنسانية . واشرف منها النفس الملكية واخس النفوس في فعلها نفس الشياطين .

واما الترتيب في احوال نفس الانسان فنقول نفس الأنسان ان لم تعلم ولا تعمل فهي كالنباتية وهي ادنى مرتبة ولكنها اسلم وان عملت الخير ولا تعلم فهي كالبهيمية فهي في السلامة اقوى وفي المرتبة اعلى . فالعابد الذي يصلي و يصوم ولا يعلم الصوم والصلوة ولا يعرف الله فهو كالحمار العامل وان علمت وعملت فان شاب الخير بالشر مع كراهة الشر وارادة الخير

فهي لوامة · وان شاب الشر الخير مع كراهة الخير وارادة الشر فهي النفس الأمارة · وان اراد الخير تارة والشر اخرى فهو نفس متقلبة هي في حالة لوامة وفي اخرى امارة · وان محضت الخير فهي المطمئنة الملكية وان محضت الشر فهي الشيطانية ولها مراتب ·

فالمطمئنة في الأولياء يجوز عليها العصيان ولكن على بعد فأن الشيطان لا سلطان له عليهم فلا يتصرف فيهم كيف شاء فأن مشيئة الشيطان ان يكفر الانسان ولا يزال في الطغيان ولكن جاز ان يأتيهم الشيطان على خلسة كالسارق الذي يسرق مال الملك لا يقال انه قدر على الملك وان له على السلطان سلطانا كذلك الشيطان يأمر التقي بالعصيان ولا يقال ان له عليه سلطانا · فأن السلطان هو القدرة التامة والتي في الأنبياء لا يجوز عليها العصيان ولكن ربما يميل قلبه الى لذة جسمية محرمة ولكن لا تصدر منه كما قال تعالى [لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا لولا ان ثبتناك] وقال تعالى لنبيه ﷺ [قل انما انا بشر مثلكم] وهذا الامتناع لم يحصل الا بعصمة الله تعالى · وفوقها مرتبة لا يبقى معها ميل القلب وهي مرتبة الأبرار في الجنة اشار اليها الله تعالى بقوله (ونزعنا ما في صدورهم من غل) ولا ندري ان الأنبياء يبلغون هذه الرتبة في الدنيا اذ هي مرتبة لا تحصل الا في الآخرة ·

واما ارباب الخلوات فجعلوا مراتب النفس عشر مراتب في الاولى لا تدرك الخير ولا تميل اليه وصل [١] فهي اما بهيمية واما شيطان في المعنى لانه ان لم يدرك الشر ايضاً ولا مال اليه فهو كالأنعام وان ادرك الشر

(١) هكذا ولعله اصلا

ومال اليه فهو اضل من الانعام وهو كالشيطان ونفسه هي الأمارة بالسوء وفي الثانية تدرك الخير وتميل اليه ولكن تعوقها الاشغال الحيوانية والاعمال الشهوانية وهي النفس اللوامة فاذا راضها صاحبها وقطع عنها المألوف وازال العائق فهي نفس زاهد فتتبدل بعد ذلك الأعمال الشهوانية بالعبادات الانسانية فتصير نفس عابد . ثم في الأمعان في العبادة يظهر له علم الحق فتصير نفس عارف . ثم العارفون على خمس مراتب في الاولى هو محب ثم مشتاق حزين ثم مقرب ومسرور ثم هو حبيب مشكور ثم هو شفيع مشفع

وبيان هذا ان من عرف الله والله جميل محتاج اليه وكل احد اذا اطلع على جمال جميل وعرف حاجته اليه احبه لكن قد يكون بشيء آخر مشغولاً فلا يحزن على فقده فاذا علم انه لابد منه ولا بديل له عنه صار مشتاقاً تراه تفيض عينه من الدمع حزناً على فقد آثاره فان العارف تلمع له بروق من جانب الحق فيلتذ به وفي الأول ربما ينقطع عنه ولا يحزن وفي الثاني كلما انقطع عنه يحزن ثم يصير بحيث كلما اراد ذلك سطع وكلما التفت الى جانب الحق اطلع وحينئذ يكون مقرباً مسروراً كالذي لا يحجب عن الملك في اوقات محبته ثم يصير حبيباً لا يتوقف الامر على طلبه بل يطلبه ربه كالملك الذي يطلب من يحبه وان كان المطلوب قاعداً في بيته ليس في عزمه الذهاب الى الباب ثم يصير بحيث يتحقق مراده وهو الشفيع المشفع والله تعالى اعلم .

الباب السابع في تزكية النفس وتصفية الروح

اعلم ايدك الله ان نفس الانسان جمع الله فيها ما فرقها في النفوس بأسرها ففيها من نفس الملك وصف ومن نفس البهايم والسباع والحشرات والهوام اوصاف فان فيها التمكن من طاعة الله والامكان من عبادة الله كما في نفس الملائكة. ثم ان الملائكة بعضهم ركوع وبعضهم سجود وجمع منهم قعود وجمع وقوف وطائفة يسبحون وجماعة يهللون ومنهم من وكله الله تعالى بالارزاق ومنهم من جعله على الارواح فجمع الله في الناس هذه الخيرات فمنهم الراكعون الساجدون الحامدون الذاكرون المنفقون المتقمون ثم وفيها ايضاً المكنة من الاشتغال بالاشغال الدنية والاقبال على الاعمال البدنية كما في نفوس البهايم والسباع والطيور والهوام وفيها حرص الجمل والخنزير وافساد الذئب والنمر وايذاء العقرب والحية وشهوة الديك والحمار واشتهاء الابل والبقر في الاكل وينكب على الامور الخسيسة كالهوام والحشرات ويسعى في طلب ما غاب عنه كالطير الطائر ثم ان الله تعالى لما خلق البهايم والملائكة جعل الارض للانعام والسماء للملائكة الكرام وكما جمع ما في الانسان ما في الملائكة والانعام جمع للانسان بين الارض والسماء فجعل الارض مسكن بدنه والسماء مصعد روحه فكما جمع الانسان بين الوصفين كذلك جعل بين الموضعين فان رجح الانسان ما فيه من صفات الملائكة على ما فيه من صفات البهايم فاز وافلح واتقطع في آخر امره الى المنزل الاعلى وهو فوق السموات السبع وهو الجنة العليا وان

رجح ما فيه من صفات السبع والبهائم على ما فيه من صفات الملك خاب وخسر وانقطع بعد انقضاء عمره الى الدرك الأسفل وهو تحت الارضين وهو النار ·

واذا علمت هذا فلا شك في ان العاقل لا يختار حال الكلاب والخنازير على فعال الملائكة المقربين ولا يختار الدرك الأسفل من النار على المنزل الأعلى في دار القرار ·

ثم ان النفس ان غلبت البهيمية عليها كانت شرا من البهائم فان البهيمة اذا سرحتها في المسرح سرحت نهارا وعادت الى الاصطبل ليلاً والنفس اذا تركتها تهيج هيجاً ولا تميج الشر محا · والعقرب والحية والذئب والسبع لا يؤذي الا عند اللقاء والانسان يؤذي القريب بالضرب والشتيمة والبعيد بالغيبة والنميمة فهو شر من البهائم والسباع

وهي تارة اخرى تعبد الله مع الجوع والعطش وتشتغل بطاعة الله تعالى مع حاجة الاهل والولد · والملائكة ليسوا كذلك فهو خير من الملائكة تارة وشر من البهائم اخرى ·

فاذا اردت ان تزكي نفسك فانظر الى الأمر الغالب فيك فما رأيت فيك من البهيمي طهر نفسك عنه وما رأيت فيه من الملكي فثبت نفسك عليه ·

واعلم ان الله جمع بين العقل والنفس وهما لا يفارقان احدهما صاحبه الا قليلاً فاذا مال العقل الى شيء خالفته النفس قليلاً ثم تعود اليه ·

واذا مالت النفس الى امر خالفها العقل قليلاً ثم تعود اليه والظفر مع الصبر فان كان العقل اصبر تبعته النفس ووافقته وان كانت النفس اصبر تبعه العقل ووافقها فاذا اختار الانسان عبادة الله بعقله خالفته نفسه ودعته

الى الاكل والشرب واللهو واللعب فان ثبت العقل عليها مدة وافقتــه النفس . واذا مال الى الاكل والشرب واللهو واللعب خالفه العقل فــان استمر عليه وافقه العقل حتى حسن له قضاء الشهوة واعمال الغضب فاذا اراد الانسان قهر نفسه وجعلها تحت تصرف عقله فطريقه التدريج في تقابل مقتضى العادة وتكثير وظايف العبادة فاذا كان يأكل في يوم مداً ينقص منه في اليوم الاول درهمين اوثلاثة ويستمر عليه يومين او ثلاثة ثم ينقص من الباقي درهمين او ثلاثة ويستمر عليه يومين او ثلاثة الى ان يعتاد قلة الاكل . واذا كان عادته لبس الناعم يلبس اياماً ما هو اخشن منه قليلاً ثم ينتقل الى الأدنى .

واعلم ان منشأ الأوصاف البهيمية الجهل والحاجة ومنشأ الأوصاف الملكية العلم والغنى فلا يوجد قبيح الامن جاهل بقبحه او من محتاج اليه والبهايم لما شملها الجهل وعمها الفقر رأيتها تأتي بالقبايح كالوقاع من غير ستر واكل مال زيد وعمرو .

ثم ان الجهل قسمان جهل بما في الحال وجهل بما في المآل . والحاجة كذلك قسمان حاجة ناجزة معلومة وحاجة متوقعة موهومة فالديك والحمار يجهلان ما في فعلهما من القبح ويحتاجان في الحال الى قضاء شهوة البطن والفرج فيأتيان بفعلهما على ملأ من الناس والنمل والجمل يتوهمان الحاجة في المستقبل فيدخران وهما يجهلان ولا يميزان بين مال زيد وخالد ولا بين نجس وطاهر .

ثم ان الحاجة تحمل على الغضب والعناد وعلى الذلة والانقياد فأن

المحتاج اذا رأى ما يحتاج اليه بطلبه غيره يدفعه بالقوة ان قوي وبالسؤال والمذلة ان عجز فالذئب والنمر يؤذيان لطلب ما يحتاجان اليه في الحال والحية والعقرب يؤذيان لما يحتاجان اليه توهما في المآل لأنهما يتوهمان موذيا فيدفعانه . فاذا حصل العلم بما في الحال من قبح التذلل لمن هو مثله او دونه وقبح التكبر على من هو مثله او فوقه وعلم ما في المـآل من سوء الحساب والم العذاب وحصل له الغنى عن الحاجة الفضلية بالترك وعن الحاجة الأصلية بالقناعة يستحيل ان يأتي بالقبيح فالعالم الغني لا يكذب وانما يكذب الكذب اذا لم يعلم ما يخبر عنه او علم تحمله الحاجة على الخفـاء الحق . واما الذي يكذب هزلاً فهو يدفع به حاجة فـأن الجد تمل النفس منه فأذا دخل في الهزل دفع مكروه الملال .

اذا علمت هذا فالتزكية بتحصيل العلم بما في الأمور الدنية من القبائح الحالية وفي اللذات البدنية من الفضائح المالية والعلم بما على القبائح من العقاب الأليم وعلى تركها من الثواب العظيم ثم بتحصيل الغنى عن الأمور الفضلية باعتبار تركها وعن الأصلية بالقناعة .

والذي قاله اهل الخلوة ان الأنسان ينبغي ان يحرك نفسه بالتوجه الى الله ثم يجتهد في ترك طيبات الدنيا بالنظر في عواقبها فيصير زاهداً فيها ثم يكثر من العبادات مع التفكر في عظمة من له العبادة وشرف الأجله العبادة فان بقدر عظمة المخدوم تتطاب الخدمة وبمقدار الاجرة يطيب العمل فالذي يخدم من لا يقدر على القتل والحبس ان اساء الخادم وانما يقدر على قطع الأجرة ثم تكون الأجرة شيئاً نزرا يجده الخادم ايـنما

يكون لا يبالغ في رضا المخدوم ولا يجتهد في الخدمة . واما اذا كان المخدوم بحيث يقتل المسيء ولا يخشى دركا وان قطع المعلوم لا يجد غيره مخدوماً يعطيه مقدار ما كان يعطيه ويكون من عادته ان يزيد الاجر الجزيل بقدر زيادة العمل يبالغ في الخدمة ويجتهد في ارضاء المخدوم ويجتنب مساخطه

فاذا علم الانسان ان الله هو القاهر فوق عباده وهو القادر على ان يبعث عليهم عذاباً من فوقهم ومن تحت ارجلهم وانه لاراد لما اراد ولا دافع ولا مخلص مما قضى ولا شافع وانه ان امسك الخير فلا يجد احداً يرسله عليه ويعلم انه خبير بكل ما يفعله سميع لكل ما يقوله ويصير له هذا العلم من قبيل علم اليقين لا يعصى الله فان الملك اذا كان العبد بمحضر منه والعبد جازم بان الملك عظيم الثواب اليم العقاب و يعلم انه ناظر اليه ومطلع عليه يستحي من مخالفته ولا يحتمل ان يعصيه الا اذا كان غافلاً او مضطراً محتاجاً فاذا علم ان حاجاته مندفعة لا يبقى هناك امكان العصيان . فاما اهل الخلوات فهم يأمرون المكلف بالجلوس في خلوة والانقطاع مدة وذكر كلمة لا آله الا الله كثيراً مع توجيه الذكر الى نفي الخواطر .

ومعنى هذا الكلام ان المختلي بنفسه ينظر في هواجس خاطره فان دخل في نفسه امر جمع المال يقول مآل المال الى الزوال و يبقى الأمر مع الملك المتعال فيقول لا آله الا الله اي لا حاصل للمال ولا مرجع الا الله واذا دخل في نفسه امر الجاه يقول آخر الأمر زوال من به الجاه وفناء من به الجاه ولا يبقى الا الله فيقول لا آله الا الله قاصداً انه لا جاه الا بالله . واذا تفكر في امر الولد يتأمل في الموت والفناء ويقول لا آله الا الله فيكون

في كل وقت من اوقات هذا الذكر جازماً بأن كل ما سوى الله باطل زائل والله هو الباقي ·

فاذا دام على الذكر مدة ظهر له محبة الله ثم يشتاق الى لقاء الله ثم يسر بالوصول الى الله وهذا درجة الأولياء وهي لاتحصل بالكسب عند من يقول به واما من بعده من كون العبد حبيب الله وشفيعا عند الله فلا كسب فيه ولا اختيار [الله يصطفي من الملائكة رسلاً] اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ·

الباب الثامن في الخاتمة والنصيحة

اعلم ايدك الله بعونه وأيدك في صونه ان الاعمال بخواتيمها والمرء يعمل بعمل اهل الجنة حتى يكون بينه وبينها قاب قوسين او قيد رمح فيسبق التقديرُ التدبيرَ ويغلب القضاء الحذر والتحذير فيعمل بعمل اهل النار ويموت عليه فيحل دار البوار · ويعمل آخر بعمل اهل النار حتى يكون بينه وبينها قدر شبر او بعد باع فيعمل بعمل اهل الجنة ويختم عليه الأعمال فيرفع الى دار القرار كما ورد به الخبر الصحيح ·

ثم ان حالي عبرة لأولي الألباب وحجة على رب الأرباب (هكذا) مسبب الاسباب فأني في صغر سني تمكن الضعف مني بسبب اسقام اطالت بي المقام وكثرة آلام احالت مني العظام حتى رق لحمي ودق عظمي وأبي في تضاعيف ضعفي مع ان بي من الضعف مايكفي يكافني تكليفا يفتت الحصا وانا فيه لا اشق له العصا · فأتى بوظايف التكرار في المسا والصباح فوق

طوق الصغار الاقوياء الصحاح حتى حفظت البلغة والمصادر وانا ابن عشر ثم حفظني اللمع ونزهة الطرف والمقامات وكثيرا من الشعر قبل اوان اثبات الشعر . ثم شغلني بالفقه زمانا يسيرا اذ كان في عزمه ان يعلمني من الطب شيئا كثيرا لما حدث من خمود وخمول الفقهاء ورأى كثرة حاجة الأحياء الى الأطباء فحفظني مسائل حنين ومرشد ابن زكرياء وانا تراني بالعين . . يا وشكلا زريا [١] ثم قرأني ذخيرة ثابت ابن قرة وانا من المشقة في حياة مرة . ارى في الموت اعظم مسرة فلما بلغت من سني الحلم وملكت في نفسي الحكم تركت الاشتغال اصلا ورأيتا من شدة الملالة وعاشرت في السوق اهلا وناسا غلب عليهم الجهالة وفتحت في جوار ابي دكانا واتجرت فيه زمانا وكنت كمسجون اطلق فصرت كمجنون احنق . تراني للاشتغال بالعلم كارها . وفي الحرفة فارسا فارها . فقال لي ابي في بعض الليالي لو فعلت ما فعلت واشتغلت بما اشتغلت لا بد من ان يكون لك في العلم شان . واني اريت ذلك في هذا الزمان واعلم اني كنت في صغري على ضد طبعك ونقيض صنعك فأني يأمرني والدي بمباشرة اهل السوق وانا الى ارباب العلم مشوق فاعاشر التجار بسبب ما علي من الاحتجار وانفلت احيانا الى التعلم واجد على فواته اشد تألم . وبقي حب التعلم في قلبي الى ان حدتك امك فشغلني عن طلب العلم همك وزال مني الطلب ومال قلبي الى جمع المال فقلت في نفسي الجزء الطالب مني هذا الذي انفصل عني . وتفرست ان

[١] بياض بالأصل قدر حرفين اهـ

الحمل يذكر يعيش ويكون له ذكر فلما صح بعض فراستي وجاءني ولد ذكر
وعاش مع كثرة الأمراض . وبلغ الحلم وزالت الاعراض قلت لا بد
من ان يصدق في الباقي فراستي . ولهذا شفقت عليك في تعليمي اياك
ودراستي . ثم سفرني الى ابن هبل الطبيب لأقرأ عليه القانون فرغبني
قوم في الاشتغال في فنون الظنون وكان في ذلك الزمان علاء الدين
الطاوسي بهمذان مقصد الرجال ومحط الرحال يتقن الجدل ويحسن
الجدال فارتحلت اليه واشتغلت عليه . ثم حملني جمع على سفر خراسان
لتعلم الأصول والتكلم في المعقول فقصدت الأمام فخر الدين الرازي
وكان واحد العصر وانواع علومه فاتت الحصر فوجدت في السفر شدة
واقمت عنده مدة فدبر ابي شيئاً وقدر ربي غيره واشتغلت بغير الطب
وجعل الله فيه خيري وخيره .

فأنظر كيف كان حالي فيما مضى . وكيف قضى الله اشتغالي بأمر
القضا . وحبب اليّ اصول الشريعة وفروعها . وكرّه اليّ فصول الطبيعة
وفصولها . وشغلني بتلاوة كتابه . وتفهم لطايف خطابه . وتقرير
احكامه . وتفسير كلامه فلله تعالى يجعل الخاتمة بخير .

واعلم ان بعض الظن اثم . واتقاء مساخط الرب حتم . فلا تظنن
بكلمة خرجت من فم اخيك سوءاً وانت تجد له في الخير محملاً .
ولا تطلق لسانك فيما مضى الا بالخير واجعل ذكره جميلاً . وقل الله
اعلم بما خرج عليه من دنياه . وامره الى الله لعله يرحمنا واياه . ولا تكن
كبعض من لا يعرف في شي شيئاً . ولا ينجو احد من لسانه ميتاً وحياً

فتراه عديم العلم قليل العمل لئيم القوم كثير الآمــال يظن ان الجنة لم تزين الا له وان الدرجات لم تعين الا لمن كان مثله - فيكفر ارباب العلم لجهله ويزري بمنصب من فيه الفضل واهله ، اعوذ بالله من الشيطان والحمد لله والصلوة على سيدنا محمد وآله . تم الكتاب

تم طبعه ثالث عشر شهر شوال سنة ١٣٤٧ و ٢٤ آدار سنة ١٩٢٩



﴿ فهرس كتاب السفينة النوحية في السكينة الروحية ﴾

صحيفة

